الفصل الثاني

أوصاف الجنة في العالم الآخر

وصف القرآن الكريم مشاهد العالم الآخر، وصفاً مجسماً في صور حسيّة بصرية، واهتم كذلك بالصور المعنوية وأولاها عناية خاصة، فكانت الصور موحية بمعاني النعيم الذي يغمر نفوس الفائزين، لتبقى الصورة قائمة في الأذهان؛ لذا عمد الوصف القرآني إلى تشخيص ما يجري في ذلك اليوم مرة، ووصف ما يصير الإنسان إليه مرة ثانية، وعرض صور النعيم مرة ثالثة. وبسبب من هذا الوصف يتخيل المطالع في وصف القرآن للعالم الأخروي الرضي عالماً فسيحاً حياً، في جنان نضرة، وأفنان وارفة، ويلاحظ كذلك مؤمناً يتلذذ سارحاً بين الرياض أو متكئاً على وثير الأرائك، ويظهر للباحث أن جلّ اعتماد بيان القرآن يقوم على الصورة البيانية الملائمة، والحركية الحية، واللونية المظهرة، والتي تكوّن مجتمعة مشاهد ذلك العالم، وهي سبيل القرآن دوماً إلى إبراز المعاني المعنوية متخيلة محسوسة، تبصرها العين، وتقرّ برؤياها... لتكون وسائل إثارة تستحث الخطا إلى الفوز بها.

١

أبرزت آيات وصف الجنة في القرآن الجنةَ رياضاً غانية، فيها مساكن طيبة، وأشجار ندية، الأغصان مثمرة الأفنان، عديدة الطعوم والألوان، تتدفق خلال أنهار غزار، سائغة الطعوم...، وفي هذا الجوّ الطبيعي الآسر العابق بالحيوية والسرور يظهر العنصر الإنساني، يُبعث في الصورة الواقعية المألوفة، التي كان الإنسان يعيشها في حياته الدنيا، ذلك كله لتساعد آيات وصف الجنة الإنسان

على تخيل وإدراك طرف من نعيم أخراه. . . واعتنى الوصف القرآني بالحياة النفسية للمؤمنين حيث تغمرهم مظاهر الإكرام، فهم في نعيم مستديم، لا يمسهم نصب يفسد سرورهم أو يشغلهم همٌّ يؤرق أجفانهم، إنما أُكُلٌ دائم، وهناءة خالدة.

على هذا النحو أظهر الوصف الجنة، وجعل صورتها تتكامل من مجموع آيات مبثوثة في سور القرآن.

ففي سورة «محمّد» وصفت الجنة وصفاً يتناول عنصراً واحداً بصورة رئيسية، وقد أسهبت الآيات الكريمة في وصف أنهار الجنة بالكثرة وبالطعم المستساغ، والماء الفرات، وأنهار اللبن اللذيذة، وخمر لا يفسد العقول، مصفى من الشوائب أو فلا شوائب فيه[1] وتشير الآية عينها إلى الثمرات في تلك الجنة إشارة سريعة، هذه الثمرات الكثيرة التي سمع بها الإنسان في حياته. وللمؤمن في هذه الجنة كذلك نعيم ومغفرة. . . ثلاثة عناصر تظهر في وصف سريع للجنة، الماء وما يشابهه من سائغ الشراب، والأثمار التي تحار في بهائها وطعومها الألباب، وما يتركه هذان العنصران من النعيم النفسي والسرور المعنوي. قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد: ١٥].

وفي سورة النحل يظهر وصف جنات الخلد وصفاً مكثفاً جداً، لكنه مع ذلك موح، حيث يستخدم الوصف الكلمة الموحية ويفجر طاقاتها التعبيرية، مما يفسح أمام خيال القارىء مجالاً ينطلق فيه، يتأمل آفاق تلك الصورة، وهذا الوصف، ثم يجمع بعد ذلك جزئيات وصفية من هنا وهناك ليرتسم منها المشهد.

فإذا الجنات دائمة الخضرة، ثرّة الأنهار، للمؤمن فيها ما شاءت نفسه[2]

---

(١) تفسير النسفي ٥/ ٤٠.

(٢) تفسير الكشاف للزمخشري ٣/ ١٦٣.

قال تعالى: ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [النحل: ٣١].

ورد الوصف أحياناً أكثر عمومية حين يشير إلى الجنة الوسيعة. قال تعالى: ﴿ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ ﴾ [آل عمران: ١٣٣] فهذا «تشبيه قد أخرج ما لا يُعلم بالبديهة إلى ما يعلم، وفي ذلك البيان العجيب بما قد تقرر في النفس من الأمور والتشويق إلى الجنة بحسن الصنعة مع ما لها من السعة»[١].

ومن أكثف الصور الوصفية التي صورت بها الجنة ما جاء في سورة الأنعام ﴿ ۞ لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡۖ ﴾ [الأنعام: ١٢٧] تلك الدار هي الجنة الهادئة الرضية، وأورد الشريف الرضي هذه الصورة في «تلخيص البيان» على أنها استعارة «والمراد: لهم محل الأمن والسلام والمنجاة من المخافة وتلك صفة الجنة»[٢].

إذا كان تعريف البلاغة «مطابقة الكلام لمقتضى الحال» فذاك ما كان مأخوذاً من القرآن أو منطبقاً عليه أشد التطابق. فالوصف قد يرد مكثفاً موحياً، وقد يرد كثير الجزئيات التي تشكل مادة بناء فني لصورة رائعة عامرة بالحياة؛ ففي سورة الصف توصف الجنة على نحو جديد، أو تظهر الآيات جانباً من الجنة، ليكون عنصراً متمماً للصورة التي يتوخاها بيان القرآن، فالمساكن الطيبة في جنات عدن عنصر هام من عناصر الجنة ورد بأساليب متعددة. قال تعالى: ﴿ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [الصف: ١٢]. وفي سورة الزمر تظهر المساكن غرفاً تعلوها غرف[٣]، تتلوى عبرها الأنهر الرقراقة التي تزيدها جمالاً وبهاء، وحسناً وثراء، كناية عن الإكرام وحسن الوفادة. قال تعالى: ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ ﴾ [الزمر: ٢٠].

---

(١) النكت في إعجاز القرآن للرماني في كتاب «ثلاث رسائل في إعجاز القرآن» ص: ٧٧.

(٢) «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي ص: ٤.

(٣) تفسير النسفي ٣١٨/٤.

في سورة النبأ يصف القرآن الجنة ويكثر من إيراد الجزئيات المادية التي تسم الوصف بالواقعية، وتجعل السامع يستبدل مفردات الوصف بمفردات حياته، فتظهر الجنة بحدائقها وأعنابها، وكواعبها الأتراب، والكأس الدهاق، ذلك ما يجعل الصورة تغتني في ذهن القارىء المتأمل شيئاً فشيئاً. قال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ [النبأ: ٣١ـ٣٤].

ويلجأ وصف القرآن إلى طريقة جديدة تقوم على الازدواجية في الصورة وطريقة عرضها، مستعينة بالكناية وقدرتها على التشخيص والإيحاء؛ ففي سورة الرحمن يتحدث تعالى عن الجنتين ذواتي الأفنان، ويشير بعد وصفه لهما إلى جنتين أخريين «سوداوين من شدة الخضرة»[1] «فيهما عينان نضّاختان: فوارتان بالماء لا تنقطعان»[2]، وهاتان الجنتان مليئتان بالفواكه. بهذه الكيفية من الوصف توصف الجنة بأوصاف جديدة دقيقة، تجعل الجنة شاخصة أمام خيالنا يتملّاها، ويسبح في رياضها الغنّاء مستشعراً جمالها وبهاءَها. قال تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَامَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾[3] [الرحمن: ٦٢ـ٦٨].

تعاقبت في سورة الرحمن آيات كثيرات تصف الجنة، بحيث يوصل مجموعُها إلى صورة واضحة محددة الإطار، وافرةِ الأجزاء، عامرة الأرجاء، فيها الأفنانُ والعيون الجارية، والفواكه المعروفة وغير المعروفة[4] في دنيا الإنسان، وفيها فرش بطائنها من إستبرق بَلْهَ ظواهرَها، ومن الظواهر الوصفية في هذه السورة: انفصال الآيات الوصفية عن بعضها بوساطة آية ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٤٧] وتوشك هذه الآية المعترضة بين آي السورة، أن تكون وسيلة فنية تمهل السامع ليتملّى الآية السابقة ويتخيل ما تصوره، فالجنتان

(١) تفسير النسفي ٥/ ١٢٣ وقال الخليل: الدهمة: السواد.
(٢) تفسير النسفي ٥/ ١٣٤.
(٣) وردت في ٥/ ١٣٤ في تفسير الإمام النسفي تفصيلات حول التمر والرمان.
(٤) تفسير النسفي ٥/ ١٣٢.

اللتان تصفهما سورة الرحمن ذواتا أفنان[1] طويلة، تطرح ظلالاً ندية مستديمة، تضم تحتها عناصر أخرى طبيعية وإنسانية. قال تعالى في سورة الرحمن: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٦ـ٥٤].

أشار الدكتور صبحي الصالح وهو يتحدث عن العلاقة بين الوصف الأدبي والموسيقى إلى ما لاحظه في سورة الرحمن من وجود ظاهرة خاصة تفردت بها من بين سور القرآن؛ هي ظاهرة التثنية وما تستتبعه من الازدواج والتقابل صورةً ووصفاً وأسلوباً وموسيقا، قال: «والنسق الملحوظ في سورة الرحمن هو ظاهرة التثنية وما تستتبعه من الازدواج والتقابل، تصريحاً وتلويحاً، وترجّعه في أرجاء السموات والأرض من أصداء مدوية رهيبة، وقارىء هذه السورة أو سامعها يستشعر هذا ولو لم يملك التعبير عنه، فما كانت أمارات التثنية لتخفى عليه في كثير من أفعال السورة وأسمائها وضمائرها، ولا في كثير مما ورد فيها من تقابل بين شيئين صريحين، ولا فيما اختير لألفاظ منها مفردة، أو مجموعة من صيغ المثنيات؛ لزيادة الإيقاع بمدّ الصوت وترجيع صداه، وإطلاق الرنين إلى أقصى مداه.

وحسب العربي الذوّاقة للبيان الرفيع أن يتمثل ـ وهو يرتل سورة الرحمن كلما طرقت سمعه ـ لازمَتها الإيقاعية ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ بصيغتها المثناة الموجهة إلى الثقلين الإنس والجن.

ثم حسبه أن يقابل هذه اللازمة بمطلع السورة «الرحمن» المنتهي بالألف والنون على ما يشبه صيغة التثنية، لا «بالرحيم» مثلاً أو بأي اسم آخر من أسماء الله الحسنى يناسب ما يمتنُّ به الله على الوجود كله من آلائه ونعمه، وجلاله وكرمه، حسبه هذا وذاك ليشهد على أذنه أنه يستمع لدى مفتَتَح السورة

(١) تفسير «الكشاف» للزمخشري ٣/ ١٥٥

وفي أثنائها حتى ختامها ألحاناً من نوع فذٍّ فريد، تنزَّلت من فوق العرش بأسلوب ملحوظ مقصود»[1].

حرص القرآن على إظهار الصورة متكاملة للجنة فوصف قاصرات الطرف[2] وهن يشبهن الياقوت والمرجان مرة، واللؤلؤ المكنون الصافي مرة أخرى، وهذا الوصف يجعل الصورة واضحة حية تساعد الخيال على تصوُّر العالم الآخر، قال تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٥٦ـ٥٨].

وفي السورة ذاتها تظهر للحور العين صفةٌ أخرى؛ فقاصراتُ الطرف أنفسُهُنَّ يُشْبِهْنَ اللؤلؤ المكنون الرطب، كنايةً عن شدة بياضه، وتوشك أن تكون صورتهن صورة لونية محببة، قال تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ [الواقعة: ٢٢ـ٢٣]. ومرة ثالثة في السورة عينها توصف الحور العين بأنهن حِسَانٌ مقصوراتٌ في الخيام، ويكتمل المشهد في الجنة ذات النعيم الناعم الذي لا يدانيه جمال وبهاء، ثم يكون هناك المؤمنون، وهم يُشاهَدون متكئين على الرفرف الخضر، كنايةً عن هدوء الضمير وراحة الشعور[3] بنعيم الفوز، قال تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ﴾ [الرحمن: ٧٠ـ٧٦].

وأخيراً تظهر صورة الجنة في سورة الرعد رياضاً واسعة يتدفق عليها المؤمنون أفواجاً، تعقبهم ملائكة كثيرون يدخلون عليهم من كل باب مستبشرين مهلِّلين، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا

(١) محاضرات في الفنون والمدارس الأدبية للأستاذ الدكتور صبحي الصالح. كلية الآداب بجامعة دمشق ـ العام الجامعي (١٣٨٠ هـ ـ ١٩٦١ م).

(٢) القاصرات: «نساء قصرن أبصارهن على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم» الكشاف ٤/ ٤٩.

(٣) تفسير النسفي ٥/ ١٣٤.

وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴾ [الرعد: ٢٢ـ٢٣].

ولا تلبث ظلال الجنة أن تدنوَ من أهليها تحنو عليهم حُنُوَّ المرضعاتِ على الفطيم، فقطوفها متدلية، ميسورة ذليلة، يأخذها الإنسان دونما جهد، بهذه الخفة في الصورة والتركيز على الجزئيات الهامة يبرز وصف الجنة حيّاً شاخصاً. قال تعالى: ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴾ [الإنسان: ١٤].

ويختتم الوصف القرآني تصوير الجنة وتجسيدها فيشير إلى مدة زمنية مديدة متواصلة يستمر خلالها رزق المؤمنين متتالياً كما لا يسمعون فيها «فضول الكلام إلا دُعاءَ السلامة»[1]، والاطمئنان والهدوء. قال تعالى ـ وهو يصف الجنة وقد ارتسمت ملامحها في أذهاننا ـ: ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾ [مريم: ٦٢ـ٦٣].

وهكذا يتكون من مجموع أوصاف الجنة المنثورة في القرآن صورة متكاملة، تسري الحياة بين أعطافها، يتخيلها الإنسان، ويرى أشجارها الخُضْرَ النضِرة، وأفنانها الطويلة الظليلة، وفواكهها الكثيرة اللذيذة، وأنهارها المتدفقة الغزيرة، والفرش والأرائك الوثيرة، والحور العين والقاصرات الطرف، اللائي يتممن إطارها، والهدوءَ النفسي الذي يخالط النفوس فيغرقها في نعيم مستديم مقيم لا يبارحها.

٢ـ وَصْفُ أَهْلِ الجنَّة

وصف القرآن الكريم المؤمنين في الجنة وصفاً بيانياً حيّاً، بحيث أظهرهم هذا الوصف وهم يتنقلون في رياض الجنة، أو يتلذذون نعيمها، أو يعودون بذكراهم إلى الحياة الدنيا، أو يصفهم وهم يتحاورون ويتوجهون إلى الله يشكرونه، وكانت الصورة البيانية وسيلة هذا الوصف الأولى: ففي سورة التحريم تُعرض صورة المؤمنين، تتقدم أنبياؤهم وينطلق نورهم يسعى أمامهم

(١) تفسير الكشاف للزمخشري ٣/ ٢٢٩.

مسرعاً، وكأنه يتعقب ظلاماً[1]، على هذا النحو أسهمت الصورة البيانية التي جسّدت النور، وأطلقته يسعى[2] في إبراز مشهد المؤمنين وهم متجهون نحو الجنة. قال تعالى: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ [التحريم: ٨].

والوصف في القرآن وسيلة فنية هامة تستخدم لتبرز الجوانب الهامة من مواقف الإنسان، وكذا كان في سورة الحاقة، حين وُصف المؤمن في أعتاب الجنة، وقد أخذ كتابه بيمينه، وقد استخفه الفرح وأنطق حَنْجَرَتَهُ ليقول: هاؤم اقرؤوا كتابيه! «ويقول إذ ذاك: إني كنت موقناً في الدنيا أن هذا اليوم كائن لا محالة»[3]. «وتصف الآية هذا المؤمن في مآله إلى عيش هنيءٍ مُرْضٍ في جنة عالية، رفيعةٍ قصورُها، حِسانٍ حورُها، نعيمة دورها، دائم حبورها»[3].

ويكتمل المشهد الوصفي المكثف حين تشير الآيات الوصفية إلى القطوف الدانية، القريب تناولها، ويقال لهم: كلوا واشربوا بما أسلفتم في الأيام الخالية تفضلاً عليهم، وامتناناً وإنعاماً وإحساناً. قال تعالى في الحاقة ـ بعد أن عُرض طرفٌ من مواقف الحشر ـ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ۝١٩ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاق�ٍ حِسَابِيَهْ ۝٢٠ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢١ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝٢٢ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۝٢٣ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾[4] [الحاقة: ١٩ـ٢٤].

ويتابع بيان القرآن المؤمنين بعد أن تسلَّموا كتبهم، ليصفهم وهم على

(١) تفسير ابن كثير ٤/٣٠٩.

(٢) وردت استعارة مماثلة في سورة الحديد ﴿يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم...﴾ وأشار إلى ذلك الشريف الرضي حيث قال: «وهذه استعارة على أحد التأولين، وهو أن يكون إيمانهم في القيامة هادياً لهم ومطرّقاً بين أيديهم وواصلاً لأجنحتهم، فجرى مجرى النور الهادي في طريقهم، بمعنى أنهم يسعون إلى الموقف غير عاثرين ولا متعثرين، ولا مخوفين ولا مروعين كما يكون غيرهم من لا إيمان له ولا هدى معه، فكأنهم لكونهم على تلك الحالة يسيرون بدليل مكون إلى دلالة، وفي ضياء موثوق بهدايته». تلخيص البيان في مجازات القرآن للشريف الرضي ص: ٣٤١.

(٣) تفسير القرآن الكريم لابن كثير ٤/٤١٥.

(٤) ظننت بمعنى علمت. كما جاء في تفسير النسفي ص: ٢٥١.

أبواب الجنة، تساق مراكبهم إلى الجنة ـ زيادةً في الإكرام ـ التي سرعان ما تفتح لهم أبوابها، ويستقبلهم الملائكة مبشرين «لقد طبتم من دنس المعاصي، وطَهُرْتُم من خبث الخطأ، فادخلوا الجنة، ولكم حرية التصرف فأنتم الوارثون لها»[1].

قال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ [الزمر: ٧٣ـ٧٤].

ويستمر وصف الموكب، الموكب الذي انطلق من ساحة الحساب إلى مكان الثواب، تحفّه العناية والرحمة، وتغمره البهجة، ثم ينطلق صوت البشرى ﴿أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]، فتطرب لسماعه الآذان، وتهش النفوس، هكذا يكون سبيل الوصف القرآني ينقل المعنى نقلاً موحياً ليكتمل بذلك إطار الوصف، وتتضح أبعاد المشهد وعناصره. وأورد الشريف الرضي في «مجازات القرآن» أنه في هذه الآية الكريمة «استعارة خفية، وذلك أن حقيقة الميراث في الشرع هو ما انتقل إلى إنسان عن ملك غيره بعد موته على وجه الاستحقاق، وليس يصح في إيراث الجنة مثل هذا المعنى؛ لأن الجنة لا يسكنها قوم بعد سكنى قوم قد فارقوها، وانتقلوا عنها، فقولُهُ تعالى: ﴿أن تلكم الجنة أورثتموها﴾ على الأصل الذي قدمت ـ استعارةُ أنَّ هؤلاء المؤمنين لما عملوا في دار الدنيا أعمالاً استحقوا عليها الجزاء والثواب، ولم يصح أن يُوَزَّعَهُمْ ذلك إلا في الجنة وهي من الدار الآخرة، فكأنهم استحقوا دخولها، فحسن من هذا الوجه أن يوصفوا بأنهم أورثوها، وإن لم يكن سكناهم لها بعد سكن قوم آخرين»[2].

ونلاحظ هذه الاستعارة البديعة التي جعلت من الجنة حقاً للمؤمنين وكأنها إرثٌ لهم؛ فهؤلاء المؤمنون استحقوا الجنة بأعمالهم كما يستحق الوارث وِرْثَه.

(١) الكشاف ٣/ ٣٥ وانظر النكت في إعجاز القرآن للرماني ص: ٧٠ ـ ٧١ في كتاب «ثلاث رسائل في إعجاز القرآن».

(٢) تلخيص البيان في مجازات القرآن للشريف الرضي ص: ٤٤ ـ ٤٥.

ولاحظ الرماني* أن هناك صلة بين الصورة التي تتركها هذه الاستعارة في آية ﴿وسيق الذين﴾ وبين عناصر الحس المختلفة، من حيث إثارةُ العواطف والانفعالات عن طريق مخاطبة الحواس. وظهر تعليله لدور الصور الربطية في القرآن حين قال في تعليل جمال الإيجاز في قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣] قال: «كأنه قد حصل لهم على النعيم المقيم الذي لا يشوبه التنغيص والتكدير.. وإنما صار الحذف في هذا أبلغ من الذكر؛ لأن النفس تذهب فيه كل مذهب، فالقرآن عدد بعض صور النعيم، وترك للخيال أن يعدد ما يشاء اعتماداً على الصور الربطية»[1].

أما في سور «يس»: يظهر المؤمنون سعداء وهم مشغولون بالنعيم، يتفيؤون ظلاله، يجلسون على الأرائك[2]، تتدلى عليهم قطوف الجنة ويكون لهم ما تشتهيه الأنفس. إن هذا الوصف البياني يرسم الإطار العام لحياة أهل الجنة، وفي آيات أخرى تأتي جزئيات عديدة لتسهم في تحديد ملامح الصورة، وتستخدم صيغاً يُضفي عليها التنكير والإطلاق قدرةً على الإيحاء والتأثير. قال تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ [يس: ٥٥ـ٥٧].

كما يلاحظ أن ذكر الأرائك يتكرر في وصف القرآن للمؤمنين، وهذا مظهر من المظاهر التي يتلازم ذكرها في وصف الجنة، وتستثمر على أنها عنصر بياني يصف آثار النعيم والإكرام على وجوه المؤمنين، وكي تجسد هذه الصورةُ تلك

(١) أثر القرآن في تطور النقد العربي: الدكتور محمد زغلول سلام ص: ٣٦٩ ـ ٣٧٠.

(٢) تفسير النسفي ٤/ ٢٤٨.

* أحمد بن علي بن محمد أبو عبد الله الرماني النحوي المعروف بابن الشرابي توفي يوم الجمعة ليومين قضيا من ربيع الآخرة سنة ٤١٥ هـ. ذكره أبو قاسم وأبو الفرج وكثير من التابعين ونقلوا عنه الأحاديث الكثيرة.
معجم الأدباء ـ ياقوت الحموي جـ٣/ ٢٧٠ ـ دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان.

الحقيقَة يتحول السرور والانشراح إلى نظرة موحية تطفح على الوجه بِشْراً ونضارة يُعرف المؤمنون بها. وما النعيم إلا أثر معنوي نفسي يدركه الإنسان في أعماق ذاته، حتى النعيمُ في وصف القرآن أشبه ما يكون ببحر متسع، وهاهم أولاء المؤمنون فيه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٢ـ٢٤].

وفي سورة الدخان يُظهر الوصف جانباً هاماً في حياة أهل الجنة، ذلك هو النعيم النفسي الذي يغمر المتقين، فلا همَّ ولا حزن ولا جزع، ولا تعب أو نصب[1]، ولا يهمل الوصف المظاهر المادية التي توحي من نحو أو آخر بما يعتمل في النفوس، إن ما يَلْبَسُه المتقون إنما هو من رفيع الحرير، وفيه بريق وله لمعان وهم متقابلون على السرر ويكسب الوصف للجنة الصفة الواقعية عندما يشير إلى الحور اللائي وصفهن بأنهن عين، كما أن الأشجار مُحَمَّلَةٌ أفنانها بما يطلب من أنواع الثمر. هذا الوصف التفصيلي يكسب المعنى نفحة خيالية تجعله واضحاً مشخصاً حياً متحركاً، فكل آية، بل كل كلمة تتضافر لإبراز الصورة وإظهار معالمها، يبدو ذلك جلياً حيث يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾ [الدخان: ٥١ـ٥٥].

وفي سورة الإنسان يرد وصف مطول جداً يبين صور النعيم فيها بإسهاب ويلحُّ على ذكر عناصر مادية بسيطة لكنها ذات دور عظيم في إغناء الصورة، وهي في الوقت عينه عناصر التنعيم من أرائك وثيرة، وظل ظليل، وفواكه دانية القطوف، مذللة الأغصان، وبين الفينة والفينة يطاف على المؤمنين بأكواب من فضة قُدِّرَتْ للكفّ وعلى قدر الري، ويُمزج لهم شرابهم بالكافور البارد تارة، وبالزنجبيل تارة أخرى، ويشربون ثالثة من عين وُصفت بالسلسبيل. قال عكرمة: «سلسبيل: اسم عين في الجنة، وقال مجاهد: سميت بذلك لسلامة

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/١٤٦.

سيلها وحِدَّة جريانها، وحكى ابن جرير عن بعضهم أنها سميت بذلك لسلاستها في الحلق»[1]، ولكن آثرت الصورة في القرآن أن تكون حيّة على الدوام خالدة توحي بمعاني لا نهاية لها...

ويبرز عنصر جديد في وصف نعيم أهل الجنة، يتمم الصورة ويجعلها مليئة بالبهجة والواقعية، فالرياض الخضر، والظلال الندية، والمناظر المرحة تحتاج أطفالاً يمورون حركة وحيوية، يزيدون جمال الطبيعة جمالاً... وفي وصف القرآن تظهر الأطفال المخلَّدون وهم كثر، صبيحو الوجوه، كأنهم اللؤلؤ المنثور، وإذا رأيتهم في انتشارهم في قضاء حوائج السادة وكثرتهم وصباحة وجوههم، وحسن ألوانهم، وثيابهم وحليهم- حسبتهم لؤلؤاً منثوراً، ولا يكون في التشبيه أحسن من هذا، ولا في المنظر أحسن من اللؤلؤ المنثور.

ولا يفوت الوصف القرآني أن يصف ما يرتديه أهل الجنة من ثياب سندسية خضر، ثم يعود بِأَخَرَة إلى وصف الشراب الطهور الذي يكون من مظاهر الإكرام.

قال تعالى يصف المؤمنين: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾[2] [الإنسان: ١٣-٢١].

---

(١) تفسير القرآن الكريم لابن كثير ٤/٤٥٦.

* محمد بن جرير بن زيد بن كثير بن غالب أبو جعفر الطبري المحدث الفقيه المؤرخ المقرىء المعروف المشهور توفي سنة ٣١٠ هـ ولد سنة ٢٢٤ أو ٢٢٥ هـ، حدَّث عنه كثيرون أشهرهم محمد بن عبد الله استوطن بغداد وأقام فيها إلى حين وفاته وكان أحد أئمة العلماء يحكم بقوله ويرجع إلى رأيه، وكان حافظاً لكتاب الله عزَّ وجلَّ عارفاً بالقرآن بصيراً بالمعاني فقيهاً بأحكام القرآن عارفاً بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم. معجم الأدباء ياقوت الحموي جـ/١٨ ص: ٤٠/٤١.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/٤٥٦ ـ ٤٥٧.

ويرتسم المشهد كاملاً للمقربين الأولين، وللأبرار أصحاب اليمين، حيث يبدو المشهد غنياً بعناصره، فتوصف السُّرُرُ بأنها مرمولة بالذهب واللؤلؤ، ووجوه المقربين بعضهم إلى بعض، ينتقل بينهم أولاد مُخلَّدون على صفة واحدة، وهم يحملون الكيزان والكؤوس يأخذون من عين جارية، فيشربون ويشربون، فلا تتصدع رؤوسهم ولا تنزف عقولهم، بل هي ثابتة في الشدة المطربة، واللذة الحاصلة، ويصف القرآن مزيداً من إكرام هؤلاء، فيطاف عليهم بفواكه مما يتخيرون، ويقدم لهم لحم الطير، مما تشتهيه النفس... ثم تكتمل الصورة الحيّة بعنصر جديد هو الحور العين، وكأنهن اللؤلؤ الرطب في بياضه وصفائه[1].. كذلك يصف بيان القرآن مجالس الجنة نقية من العبث واللهو واللغو.. قال تعالى في سورة الواقعة: ﴿أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝١٢ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ۝١٤ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝١٥ مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ۝١٦ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝١٨ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ۝١٩ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢١ وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ۝٢٣ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٢٤ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ [الواقعة: ١١ـ٢٦].

وفي السورة عينها، يوصف الأبرار في مشهد آخر لا يقل غنى عن مشهد المقربين، والمشهد هنا يُصوَّر من خلال الكلمات الوصفية فنلاحظ أن أوصافاً عديدة متلاحقة تكون مادة إكرام أصحاب اليمين، فهم مكرمون هادئون، فلا منغصات، وعبَّر القرآن عن هذا بمعنى حسي يدركه المتأمل، فالطلح منضود، والظل ممدود، والماء مسكوب، والفاكهة كثيرة، لا تنقطع، ولا تمتنع عن الغلال[2].

أما جزئيات الوصف الذي يتناول أهل الجنة فإنه يسهم كذلك في إيضاح الوصف الفني، فالفرش المرفوعة ناعمة، كل أولئك إكراماً لأهل اليمين. قال

(١) تفسير النسفي ٥/١٣٧.
(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/٢٨٨.

تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٢٧ـ٣٨].

وفي سورة الصافات وصف يقرب من هذا بجزئياته، والإطار العام للصورة التي تعرضها الآيات. قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤١ـ٤٧].

٣ـ وَصْفُ نعيم أهلِ الجنَّة

عمد الوصف القرآني إلى إظهار نعيم اليوم الآخر عمداً، واستخدم الصور البيانية، والمشاهد الفنية، في إبراز ذلك النعيم، حتى يرى المتتبعُ لآيات القرآن هذا النعيم، فأوشكت الجنة أن تكون قاب قوسين أو أدنى، بفضل دقة الوصف وروعة التصوير، ودلالة الإيحاء، فجنى الجنة دان من الأيدي، والحور العين كالياقوت.

كما ظهر المؤمنون يرزقون، متكئين، لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً، بل يلبسون ثوباً من سندس وإستبرق، ويُحلَّون من أساور من فضة، يشربون الرحيق المختوم في صحاف من الذهب، وبأكواب تشتهيها الأنفس وتَلَذُّ لها الأعين، هكذا بهذا الوصف الرخي الضاحك، المليء بالسرور والحبور، والنعيم المستديم وُصف المؤمنون في رحاب الجنة.

ويتجلى وصف نعيم أهل الجنة في سورة المطففين، حين يشير بيان القرآن إلى أن شراب أهل الجنة من رحيقٍ، موصوفٍ بأنه مختوم، وقد مازجه مسك. قال تعالى: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٥ـ٢٦].

ورأى قتادة والضحاك أن قوله تعالى ﴿ختامه مسك﴾ «إنما يشير إلى أن

عاقبته مسك»[1]. ويهدف هذا الوصف الموحي إلى أن يتنافس الناس على ذلك الشراب، وهذا الشراب الذي كثر الحديث عنه إنما هو شراب عال ويرى ابن كثير أنه «شراب أبيض مثل الفضة». كما يرى أن التسنيم أشرف شراب أهل الجنة وأعلاه[2]، الذي قال تعالى في وصفه في معرض الحديث عن الجنة وبهائها: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝٢٧ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ٢٧-٢٨].

نقل القرآن الكريم وصف نعيم الجنة بوسائل تصوير، وطرق تعبير، غلب عليها طابع الحسيّة والتشخيص: ففي سورة الرحمن وصفٌ مُسْهِبٌ للمؤمنين وهم على فرش بطائنها من إستبرق، والمعروف أن بطانة الشيء أخشن من ظهره، وفي ذلك إشارة إلى نعومة ونداوة الوصف، وإن كان هذا المنهج الوصفي يتخذه القرآن وسيلة بيانية فما ذلك إلا ليجعل أمام الخيال سعة يتملى فيها الصورة، فها هو ذا المؤمن على فراشه الوثير، تدنو منه الأثمار في جنات الخلد. قال تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ [الرحمن: ٥٤].

وفي سورة الصافات تتعدد أساليب وصف النعيم، وجلُّها يخلق جواً عبقاً بالإكرام، فالرزق معلوم، والفواكه مظهر له، وهكذا فإذا بالمؤمن في بيئة علوية في ملأ خلقه الوصف الفني خلقاً في ذهن السامع، وقد أشار سيد قطب إلى جمال الشراب الذي يَعُلُّه سكان الجنة، مقدَّماً لهم في كأس من معين، بيضاء لذة للشاربين لا فيها غول ولا تأثيم، قال: «وتلك أجمل أوصاف الشراب التي تحقق لذة الشراب وتنفي عقابيله، فلا خمر يصدع الرؤوس، ولا منع ولا انقطاع يذهب بلذة المتاع»[3].

قال تعالى واصفاً حال المؤمنين وهم غارقون في النعيم: ﴿لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ۝٤١ فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ۝٤٢ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٤٣ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝٤٤ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٨٦.
(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٨٧.
(٣) «في ظلال القرآن» لسيد قطب ٣/ ٥٣.

مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ [الصافات: ٤١ـ٤٧].

جاء في «حسن البيان»[١] تفصيلات حول هذا الوصف لنعيم أهل الجنة، حيث قال مؤلف الكتاب إن الكأس الذي من المعين: «كأس فيه شراب على سبيل المجاز من إطلاق المحل على الحال، مَعِين: شراب أو نهر ظاهر للعيون...»[٢].

ويرتسم مشهد الوصف المادي لنعيم الجنة في سورة الزخرف، حيث يشار إلى الصِّحاف المذهبة التي يطاف بها على المنعمين زيادة في الإكرام ومبالغة في الوِفادة، حتى الأكواب التي تقدم لهم هي بسبيل من هذه الصحاف، وغاية الوصف أن ينفذ إلى وصف أثر ذلك الإكرام في النفوس، فهي تشتهيه كما ورد في قراءة بعضهم[٣].

بهذا المزج بين الصور الحسية من نحو والذوقية من نحو ثانٍ، يصف القرآن نعيم الجنة يغشى المؤمنين ما شاء الله، فهم خالدون لا يبغون عنها حِوَلاً، ثم قيل لهم على وجه التفضل والامتنان: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٢] وهكذا يبدأ الوصف حسياً وينتهي معنوياً مجرداً، وبين هذين المحورين يرتسم المشهد في خيال السامع وبصره مكتسباً الحركة والحياة. قال تعالى: ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الزخرف: ٧١ـ٧٢]. ومن متممات وصف النعيم بروز عنصر الإنسان الذي يخلع على الجو جمالاً وبهجة، عنصر الولد البريء الذي يطوف وهو في نقاء نفسه ونضارة منظره كأمثال اللؤلؤ المكنون. وهذا الوصف ليس هو للتقريب بل من قبيل بسط الحقيقة وتجسيد ما سيقع فعلاً. قال تعالى: ﴿ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴾ [الطور: ٢٤].

---

(١) «حسن البيان» تأليف الأستاذ محيي الدين الخالدي.

(٢) «حسن البيان» لمحيي الدين الخالدي ص: ٢٥٢.

(٣) تفسير ابن كثير ٤/ ١٣٤.